مقدمة كتـاب
«الإبـل على بـلاط قيصـر»
تأليف: «زيجريد هونكة»

بدأت الكاتبة الألمانية «زيجريد هونكة» تكتب في بداية الخمسينيات لكنها لم تحظ بشهرة حقيقية إلا عندما نشرت كتابها «شمس الله على الغرب» في عام ١٩٦٠م بعد سنوات مثمرة قضتها في المغرب العربي. وكانت دعوتها لتوثيق الروابط بين أوروبا والعالم العربي سبباً في أن تحظى بتقدير دولي واسع في الدول العربية والإسلامية».

ومن أعمال الكاتبة الأخرى: «في البدء كانا رجلاً وامرأة» [١٩٥٥م]، «الرايخ وأوروبا المتطورة» [١٩٧١م]، «المنشور بعد الشيوعي» [١٩٧٤م]، كذلك شاركت الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر وآخرين من كتّاب ألمانيا والعالم العربي بمقال واسع أسمته «أنهار من الشرق تسقي حقول الثقافة الألمانية» [١٩٧٤م]، وأخيراً صدر كتابها «الإبل على بلاط قيصر» [١٩٧٦م].

وإذا كانت زيجريد هونكة قد تعرضت في كتابها «شمس الله» لأوروبا كلها، فإننا نجدها في هذا الكتاب الأخير تقتصر على علاقات العرب والألمان، حيث كانت تلك العلاقات منذ بداياتها الأولى ذات طبيعة خاصة: فهناك نوع معين من التعاطف يميز تلك العلاقة إلى حد أنها لم تتحول إلى علاقة عدائية حتى في أثناء الحروب الصليبية، بل إنها كثيراً ما كانت تتسم بالود، وتعود تلك العلاقة الخاصة إلى نوع التشابه في شخصية وفلسفة كلا الشعبين، وهو موضوع أثار اهتمام الباحثين منذ وقت بعيد.

وتعمد هونكة في كتابها إلى إجراء مقارنة تهدف إلى إلقاء الضوء على تلك الصلات الفريدة في نوعها، كما أنها تشير إلى العلاقات الإنسانية المتعددة والتأثيرات الحضارية المختلفة التي تمت نتيجة اللقاءات التي جرت منذ عهد شارلمان بين الألمان والعرب، ولقد كانت تلك اللقاءات تمثل قمة حقيقية للتفاعل الحضاري وتتجاوز بتأثيراتها المتعددة والمثيرة الأمور الظاهرية.

يضم الكتاب الذي يقع في ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط ثمانية أبواب ومقدمة وخاتمة وثبتاً بالمراجع والبيانات المبوبة، وبياناً بالصور. وتقسم الأبواب إلى فصول متفاوتة في الطول. ولنلق نظرة على محتويات الكتاب بصورة عامة.

الباب الأول: لقاءات عربية ألمانية.

الباب الثاني: الفروسية العربية والفروسية الألمانية.

الباب الثالث: الحروب الصليبية، صراع بين الغرب والشرق.

الباب الرابع: الشهامة العربية والشهامة الألمانية.

الباب الخامس: المؤثرات العربية تصنع حياة من نوع جديد.

الباب السادس: المؤثرات العربية تصنع أسلوب حياة جديد.

الباب السابع: حوافز فنية عربية.

الباب الثامن: الحكمة العربية والألمانية.

وبذلك فإن الكاتبة تفتح أمام القراء الألمان طريقاً جديداً لتفهم العرب، وهو أمر أصبح اليوم من ضروريات العصر. وتقول زيجريد هونكة عن كتابها [ويمكن لكتاب «شمس الله على الغرب» أن يسهم بقدر متواضع في ذلك التحول الفكري بصورة كانت مفاجئة لمؤلفته لم تكن تهدف من ورائه إلا تنوير الألمان فحسب.

فهاهم أولاء رؤساء الدول العربية الممتدة من الرباط حتى بغداد يصرحون بأن كاتب «شمس الله» جاء بعد قرون من التأثير الثقافي الأجنبي الاستعماري المخطط ومن تدمير الشخصية العربية، جاء ليساعد العرب أنفسهم على استعادة هويتهم من جديد].

Obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة المؤلفة

حين ظهر كتاب «شمس الله على الغرب» عام ١٩٦٠م كتبت في مقدمته: «من المحتمل أن يرتبط مصيرنا قريباً بصورة وثيقة بمصير العالم العربي الذي قام ذات مرة من قبل بتغيير معالم دنيانا تغييراً حاسماً، ثم أليس من الواجب علينا أن نتساءل اليوم عن الأمور التي تربطنا متجاوزين تلك التي تفصل بعضنا عن البعض الآخر؟» ولقد تحققت في الفترة الأخيرة النبوءة التي ظلت خلال السنوات الخمس عشرة التالية على ذلك تبدو غريبة وخيالية، ووعتها أوروبا على نحو عنيف وكأنها تلقت صدمة عنيفة، واتضح أمام ناظريها بما لا يدع مجالاً للشك في أن العرب والأوروبيين يحتاج بعضهم لبعض، بل يعتمدون مصيرياً بعضهم على بعض بصفتهم جيرانًا يطلون على البحر المتوسط.

وهكذا دخل العرب في خضم أحداث العالم للمرة الثانية بصورة مؤثرة، كانت المرة الأولى حين خلق العرب في القرن السابع وضعاً سياسياً عالمياً جديداً كل الجدة على أثر إقامة دولتهم الكبرى والسيطرة على الجزء الأكبر من حوض البحر المتوسط، فتحطم عالم البحر المتوسط القديم، مما أوجد سبباً لنشوء العالم الغربي على أكتاف الجرمان والفرنجة الذين آل مركز الثقل إليهم.

أما دخول العرب اليوم إلى مسرح السياسة الدولية فإنه أدى إلى تغيير أوضاع القوى في العالم تغييراً كبيراً، ولم يعد البحر المتوسط يقوم بدور الحاجز الفاصل بين شعوب تعادي بعضها بعضاً، ولم يعد بمنزلة الجرف العميق الذي حفرته هجمات العرب على سواحله الشمالية والمواجهات الدموية إبان الحروب

الصليبية، كذلك فقد تحطم الحاجز الداخلي الذي بناه الاستعمار الأوروبي، لذلك فإن الدلائل تشير اليوم إلى قيام تعاون بين شريكين على قدم المساواة.

والحق أن ألمانيا بالذات لم تشارك سواء في حملة الكراهية الدينية المنظمة ولا في الحركة الاستعمارية، بل إن العرب والألمان كانوا على مر القرون شهوداً على لحظات مصيرية حقيقية ربطت صداقتهم معاً.

ولقد بدأ العالم العربي بعد أن نَفَضَ عن كاهله الآثار الخطيرة للاستعمارين التركي والأوروبي يخطو منذ وقت طويل في طريق النهضة الشاملة التي شملت الإسلام فيما شملت، كما بدأ يخطو في طريق ميلاد داخلي جديد، وبدأ يطور نفسه استناداً إلى يقظة وعيه الذاتي من جديد ليصبح أحد عوامل القوة السياسية، وهو أمر لم تدركه أوروبا لأنها صبت جل اهتمامها على التعامل التجاري.

ويمكن لكتاب «شمس الله على الغرب» أن يدعي أنه أسهم بقدر متواضع في ذلك التحول الفكري بصورة كانت مفاجئة لمؤلفته؛ لأنها كانت تهدف من ورائه إلى تنوير الألمان فحسب. فهاهم أولاء رؤساء الدول العربية الممتدة من الرباط حتى بغداد يصرحون بأن كتاب «شمس الله» جاء بعد قرون من التأثير الثقافي الأجنبي الاستعماري المخطط ومن تدمير الشخصية العربية، جاء ليساعد العرب أنفسهم على استعادة هويتهم الذاتية من جديد.

كذلك لم يغفل أي من رؤساء الجمهورية الألمانية، ولا أي سياسي وهو يلقي خطبة من خطب المائدة تحية لضيف عربي كبير، أن ينوه بالمآثر التي بثتها شمس الله في بلادنا، كما قررت وزارة الخارجية الألمانية أن الكتاب ظل خلال فترة قطع العلاقات بمنزلة الجسر الوحيد الذي يربطنا بالعرب، فمنذ ظهوره بدأ يتأكد اعتراف الناس في المدارس أو لدى الرأي العام أو في الكتب بالإنجاز الحضاري

الضخم المستقل الذي أنجزه العرب - مشيرين أو غير مشيرين إلى المصدر - وكانت أوروبا تعتبرهم في الماضي مجرد ساعي البريد الذي نقل الحضارة اليونانية.

على أننا لا نزال نلاحظ جهلاً يؤسف له يسود حتى اليوم، جهلاً بالشعب العربي وشخصيته وطبيعته وتفكيره. وقد تناولنا في «شمس الله» بالدرجة الأولى الكتب والأدوات التي كانت الوسيط بين العرب وبيننا، أما في كتابنا هذا فنحن نسأل عن الإنسان نفسه أو نسأل متى التقت شعوبنا مع بعضها في اتصال مباشر دون وسيط، لقاء إنسان بأخيه الإنسان.

لقد شهد الماضي - للأسف - فترة واحدة تحقق فيها الاتصال المباشر، فترة تحددت صورتها على نحو مأسوي خلال الحروب الصليبية: ولذلك كان من الواجب أن نسلط عليها الضوء في هذه الدراسة. إلا أن ذلك الموقف الحساس يوضح العلاقات الخاصة بين الألمان والعرب، تلك العلاقة التي تغلغلت بعمق في الجوانب الإنسانية وكشفت الملامح الجوهرية التي تميز شخصيتهم وشخصيتنا، وأصبحت الآن أساساً لعلاقة التفاهم الحالية بيننا وللتعاون المُدرك بيننا على الساحة الدولية المعاصرة.

لم يكن الدافع إلى علاقات الصداقة بين العرب والألمان البترول العربي أولاً، إنما هي ذات جذور قديمة ترجع إلى فترة الحروب الصليبية التي كثيراً ما تحولت فيها لقاءات القتال إلى صلات صداقة نتيجة لنوع من التعاطف الفريد الذى له مبرراته النفسية الداخلية، وهذا هو الذي يعطي لعلاقتنا مع العرب تلك النوعية الخاصة ويقربنا من صديق وشريك المستقبل على الصعيد الإنساني.